الإعجاز النفسي

في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه كثير من الناس فلا يكاد يعرفه إلا القلة، وهو صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، ففيه ما تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، ، فكم من عدو للرسول ﷺ، من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً".

والبعض يرى للإعجاز النفسي عدداً من المعاني:

أحدها: وقع القرآن في النفس، **وثانيها:** استخدام القرآن علمه عن طبيعة النفس البشرية ومعرفته بشئونها المختلفة ونواميسها التي تخضع لها لتأييد دعوته وحجته.

وذهب عدد من العلماء والباحثين إلى تسمية هذا الوجه من الإعجاز بأسماء أخرى، فهذا سيد قطب في أكثر من كتاب من كتبه يدور في فلك هذا الوجه الإعجازي ويتحدث عنه بإسهاب وإشباع، ويسميه أحياناً: سحر القرآن، أو: التصوير الفني، وهو في جميع ما كتب عن تأثير القرآن في النفوس وما يدخلها منه من روعة وتأثر إنما يزيد فكرة الإعجاز النفسي جلاءً ووضوحاً وتثبيتاً وتأكيداً، وإن لم يستعمل هذا الاسم في مؤلفاته، ومن المؤلفين من استخدم مصطلح: موسيقى القرآن والتأثير الوجداني له، وقام عدد من المتأخرين بالبحث في مدلول الإعجاز النفسي، وتحديد مجالاته، وممن بحث في ذلك الشعراوي (ت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) وهو يرى أن الإعجاز النفسي يتمثل في تمزيق القرآن حواجز غيب النفس.

ويرى الدكتور صلاح الخالدي أن للإعجاز النفسي جانبين:

"**الأول:** حديث القرآن عن النفس الإنسانية وبيانه لصفاتها، وتحليله لها، وكشفه لخباياها وخفاياها.

الثاني: تأثير القرآن في النفس الإنسانية سواء كانت مؤمنة أو كافرة، وما ينتج عن هذا التأثير في النفس من نتائج وثمرات.

ويرى الدكتور فضل حسن عباس: أن الإعجاز النفسي هو: "ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم، وما يفرحهم وما يحزنهم، ما نجده من بيان

لمكنونات النفس وخفاياها، ودوافعها في آي القرآن الكريم، قد يكون ذلك في القصة القرآنية، وقد يكون ذلك في الحديث عن أعداء المسلمين، وقد يكون ذلك في الدنيا، وقد يكون في الآخرة كذلك، فإنك لتقرأ الآية من القرآن الكريم، وإذ بها تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم صورة واضحة المعالم، بيِّنة الاتجاه، لا تهمل جزئية، ولا تنسى مشهداً"، أما تأثير القرآن العظيم في النفوس وما يسبغه عليها من هيبة وحلاوة ورغبة ورهبة فيرى أنه: الإعجاز الروحي **فالإعجاز النفسي يعني:** عجز الكافرين أن يأتوا بكلام مثل القرآن في بلاغته وبيانه، وفي تأثيره العظيم في نفوس قارئيه وسامعيه، وبهذا يظهر لنا أن تأثير القرآن الكريم في النفوس يرتقي ويتفوق ويتميز عن تأثير غيره من كلام الأدباء والفصحاء والشعراء وغيرهم، فأي كلام آخر لا يمكن أن تصل درجة تأثيره إلى درجة تأثير القرآن، ومعظم تلك التأثيرات سلبية تؤدي إلى السقوط والهوى والانحدار، بخلاف تأثير القرآن وطاقته الإيجابية.

ورد في هذا الشأن عدد من الآيات بيان عظيم تأثير القرآن الكريم في النفوس، ومن هذه الآيات قوله ﷻ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. تبين هذه الآية أن القرآن لو خوطبت به الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ولتشققت، وهي دعوة موجهة لأصحاب العقول والقلوب أن يتأثروا مثل هذا التأثر. وفي آية أخرى قوله ﷻ:﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ . هذا ما يصنعه القرآن في هذه المخلوقات، "ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى، لقد صنع في هذه النفوس وبهذه النفوس خوارق أضخم، وأبعد آثاراً في أقدار الحياة، بل أبعد أثراً في شكل الأرض ذاته، فكم غيّر الإسلام والمسلمون من وجه الأرض، إلى جانب ما غيّروا من وجه التاريخ، وإن طبيعة القرآن في حقيقته وفي تأثيره، إن طبيعته لتحتوي على قوة خارقة نافذة، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحي به ومن الآيات قوله ﷻ:﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾. ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ و قوله

ﷻ:﴿إذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، و قوله ﷻ:﴿إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾، تشير هذه الآيات الكريمات إلى أن تأثير القرآن الكريم في المؤمنين يؤدي إلى أن تقشعر جلودهم وهي حركة غير إرادية تدل على عظيم التأثر، ثم تلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن بذكر الله، قال ﷻ:﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. كما تؤدي إلى أن يخروا سجداً وهي حركة إرادية، تابعة لتأثر القلب وانفعاله إلى درجة حمل الجسد على السجود، وهذا فيه غاية الوله والخوف والخشية لله سبحانه. ومن الآيات قوله ﷻ:﴿وَإِذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلىَ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾. ورد أنها نزلت في نفر من نصارى الحبشة قدموا على رسول الله ﷺ، فلما سمعوا القرآن أسلموا، وقيل نزلت في النجاشي وأصحاب له أسلموا معه، وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه ثم سيلانه منها كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء وهو سيلانه من شدة امتلائه، ففيض دموعهم لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله على رسوله حق، وإسماع الكافر كلام الله رجاء أن يتأثر به ويؤمن أمر مطلوب من المؤمنين، فمجرد سماع القرآن يمكن أن ينقل المرء من الشرك إلى الإيمان: قال ﷻ: ﴿وَإِنْ أحدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾. فهو له سلطان على النفوس، وليس هناك من كلام البشر ما له سلطان على النفوس مثل كلام الله. وأي مخلوق إذا سمع القرآن يجد له على نفسه سلطانا يجعل النفس تخضع وتستسلم له، إلا من كان معانداً أو ركب هواه. **هذا السلطان تجده في أشياء:** وهذا من أسرار السلطان الذي فرضه القرآن على النفوس التي تستمع إليه؛ لأنَّ الأنفس متنوعة. بل النفس الواحدة لها مشارب، فالنفس تارة يأتيها الترغيب وتارة يأتيها الترهيب، تارة تتأثر بالمثل، تارة تتأثر بالقصة، وتارة هي مُلْزَمَة بالعمل، وتارة تكون ملزمة بالاعتقاد. فَكَوْنُ هذه وراء هذه، يغْدِقُ القرآن على النفس البشرية أنواعا من الآيات المؤثرات فإن لم تتأثر بهذه تتأثر بهذه. و هذه طبيعة كلام من خَلَقَ هذه النفوس البشرية، قال ﷻ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير﴾. فلا مفر منه لأنَّه يأسرك ويحاصرك، فأيُّ إنسان أراد أن يفر لا يمكن أن يفر منه، ستأتيه قوة بآية فيها وصف الكافرين، آيات فيها قوة في وصف المنافقين، آيات فيها

قوة في وصف المؤمنين، آيات فيها العقيدة، فيها الماضي، فيها الحاضر، فيها النبوة، فيها الرسالة، فيها الدلائل، فيها حال المشركين، إلى آخر ما تميز به أثر على النفوس، لدرجة أن البعض امتهن القرآن في العلاج والرقية الشرعية لإراحة ومعالجة النفوس القلقة المضطربة. وهذا وجه من وجوه الإعجاز التي أودعها به منزل القرآن، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. فقد جاء محكما ومتشابها لمخاطبة أنواع الأنفس المختلفة، فهذه يَصْلُحُ لها الترغيب، وهذه يَصْلُحُ لها الترهيب، وهذا يَصْلُحُ له وصف الجنة، وهذا الذي ينشأ عنده الإيمان بالحديث عن عالم الفلك والنجوم إلى آخره، وذلك الذي ينشأ عنده الإيمان بالجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك. إن خطاب القرآن للناس جميعاً على تنوع أنفسهم لهو دليل على أنَّ له سلطان على النفوس. ولقد كتبت بحوث في أثره على البهائم والجمادات ولذلك ما يؤيده من السيرة إذ تأثر به الجذع وهذا ممَّ اشتهر عنه لما كان يخطب ﷺ على جذع نخلة في مسجده، ثم أمر أن يصنع له منبر من الخشب، فلما صنع له ترك الجذع، فأول ما قام يخطب على المنبر صار ذلك الجذع يحن إليه كحنين الناقة العشُراء إذا فقدت ولدها، وسمعه كل أهل المسجد حتى نزل من على المنبر والتزمه فصار يهدئه حتى انخفض صوته مثل الطفل إذا التزمته أمه، تأثرت به الجبال كما جاء في الحديث: أن داود (عليه السلام) كان إذا قرأ القرآن، جاوبته الجبال، قال ﷻ:﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾، وقد اشتُهر أبو بكر رضي الله عنه بالبكاء والتأثر عند تلاوة القرآن، وحين أوصى النبي ﷺ في مرضه أن يصلي أبو بكر بالناس، قالت له عائشة: "إن أبا بكر رجل أسيف إذا قرأ القرآن غلبه البكاء" وفي رواية: "إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمعه الناس من البكاء" قال ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.